فكتور هوجو

قصة حبه الاول

ورسائل غرامه

كتب فكتور هوجو في ديوانه اوراق الخريف مخاطباً « رسائل غرامه » فقال :

يا رسائل الشباب والقصة والحبّ
هوذا انت. ليخفق فؤادي ثانية
مستجيباً، اذ اجثو لاقرأك .
ولأستعد عمرك ثانية، فأعود
صالحاً وراغداً ، كما كنت مرة . ثم دعني
أذرف الدمع لانى انقلبت غير ما كنت

كنت في الثامنة عشرة . ما أبهج أحلامي حينئذ !
كان الامل يغنّيني فيهز سريري كذباً وختلاً
وكان يتلألأ فوق نجم لامع .
أما الآن فقلبي فقط يتنفس بذكرك
مع اني كنت حينئذ في منزلة ربّ لها . ولكن
الرجل الآن يذكر الطفل الذي كان .

يا زمان التأمل والقوة والرشاقة
كنت انتظر كل مساه حتى تمرّ بي ،
فأقبّل قفازها الواقع على الارض
كنت حينئذ آمل كلّ شيء من الحياة — الحب والشهرة والقوة
آه — ما السبيل لأعود تقيًا غيوراً متصابياً
مؤمناً بكل ما هو تقيّ !

هذه الرسائل — رسائل الشباب والفضيلة والحب — مجموعة في كتاب يربي على مائتي صفحة. وكانت عروسة احلامه قد دمرت رسائلها اليه وانما احتفظت برسائله. تطالعها الآن فتطالع فيها عفة في عنف. وليونة في رزانة، إنها حافلة بآماله ومخاوفه، بأفراحه المنطلقة عفواً كأفراح الطفل وبإباء الخصام واساليبه يتلوها العفو والغفران!

يبدو لك وانت تقرؤها انها لم تكتب ليقرأها احد الاّ مليكة قلبه. فهو في غير رسالة منها يتوسل اليها ان تحرقها تقيتها الادبية في الكشف عن نفس هوجو، اعظم من رسائل تكتب والغرض منها النشر، لان نفس هوجو في رسائله هذه مطلقة على سجيتها. وقلما يتاح ان يُرى غراماً كهذا الغرام. يتفتح كالزهرة الطاهرة ويتجس كالنبع الصافي فتراه وهو يتفتح وترانقه وهو ينبجس مكشوفاً للعين في كل فور وفي كل غور

***

عرف فكتور اديل من ايام الطفولة لان صلة الجوار والصداقة كانت تربط اسرتي هوجو وفوشه، قبل ولادتهما. فنشأ اولاد الاسرتين وترعرعا معاً. وكانوا ينادون بعضهم بعضاً بضمير المفرد المخاطب. وهو بالفرنسية دليل على توثق الصلة ورفع الكلفة

وقد اشار فكتور هوجو الى انبثاق حبه الاول بالكلمات الآتية: ارى نفسي ثانية، فتى، تلميذ مدرسة، مرحاً لعوباً هادياً صارخاً مع اخوتي، في المرج الخضر في حديقة البيت الذي قضيت فيه ايام الحداثة. ثم يقول: «كنت لا ازال صبيّاً، ولكن الاحلام كانت تراودني، والشهوة تملأ أعطافي». والى جانبه كانت فتاة «نجلاء العينين، كثة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين. متوردة الخدين...»

«وكانت امّانا تقولان لنا انطلقا والعبا معاً. فكنا نتنزه قبل ان نلعب فكنا نفضل ان نتحدث. وكنا من عمر واحد ولكنا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك ظللنا مدى سنة اخرى، ونحن رفيقان، بل لقد جربنا غير مرة، ان نتبين من منا اقوى من الآخر وأصلب عوداً. خطفت منها مرة اكبر تفاحة في البستان. وصفعتها اخرى لما رفضت ان تعطيني عش عصفور. فأخذت تبكي فقلت: لا بأس لنذهب ونخبر والدتينا فتقولان ان كلينا اخطأ وكلتاهما تعتقد في قلبها ان ولدها كان على صواب»

«ولم يمض زمن طويل حتى صارت، اذا سرنا، تتكيء على ذراعي، فكنت احس بفخر عظيم. وينتابني شعور غريب. فكنا نمشي في رفق. ونتحدث في لطف. اسقطت منديلها مرة فلمسته فمست يدي يدها وشعرنا كلانا بهزة. فجعلت تكلم عن العصافير، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق وراء الاشجار، ورفيقاتها في المدرسة، وملابسها. تحدثنا حديثاً بريئاً عن امور عادية

ولكن خدود كلينا تورّدت لان الفتاة اصبحت صبيةً». وادبل تؤيد في ما كتبته رواية فكتور .

في اغسطس سنة ١٨١٨ اضطرت اسرة هوجو ان تنتقل من دارها، لان معاش الوالد الجنرال ، كان لا يكفي ، لكي يحتفظ لزوجه وأولاده ، بدار لها حديقة . فانتقلت الاسرة الى شقة في الدور الثالث من شارع « بتي اوغسطان » رقم ١٨

وكانت مدام هوجو ، تذهب بعد العشاء ، تزور صديقتها مدام فوشه . وكان ابناها يرافقانها في بعض هذه الزيارات . ويقول بواب « اوتل ده تولوز » — حيث كان يقطن المسيو فوشه — انه كان يرى اوجين وفكتور هوجو مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشه . وكادت هذه الزيارة تكون رتيبة كل ليلة من ليالي الشتاء في سنتي ١٨١٨—١٨١٩

كان الضجر يخيّم على هذه السهرات في الغالب . فقد كان المسيو فوشه ضيقاً عليلاً ، فكان يأخذ كتبه وينتحي زاوية خاصة ، ويفضل ان لا تتلقفهُ ثرثرة الحديث . وكانت مدام فوشه هادئة الطبع ، لا تميل الى الاستفاضة في الكلام فجعلت الصمت ديدنها رفقاً بزوجها . وكانت مدام هوجو نفسها تقطع عملها — الخياطة — فتأخذ قليلاً من النشوق وهو عمل كان المسيو فوشه نفسه لا يعفُّ عنه . وكانت قد نبهت على ولديها اوجين وفكتور ان لا يتكلما الا اذا خوطبا

إلا أن هذه السهرات كان لها اثر خاص في نفس الفتى فكتور . كان اثراً مبهماً يتعذر حتى على من كان مثله بارعاً في استعادة الذكريات وتحليلها ، ان يحدده ويصفه . فكان اذا انتهى العشاء في داره ، كلفنا بالاسراع الى منزل مدام فوشه . فاذا كان شقيقه اوجين متأخراً استعجله . وكان في الشارع لا يعجبه البطء في السير ، فاذا حال دون الذهاب الى « اوتل ده تولوز » حائل ما ، كانت الدنيا تسودُّ في عينيه وتستولي الكآبة على نفسه

وهذه الرغبة في زيارة آل فوشه ، لم تكن كلفاً منهُ بمراقبة نار الموقد ، او البقاء جالساً على كرسي ساعتين متواليتين في غرفة يسودها الصمت ، ولا يقطع صمتها في الغالب الا عطاس امه والمسيو فوشه بعد تناول النشوق ، بل كان يكفيه ان يبقى المسيو فوشه مكبّاً على كتبه ، والسيدتان على عملهما ، لانه كان يستطيع حينئذ ، أن يحدق ، ويطيل التحديق ، في أديل

والراجح انهُ كان لا يدري ، ما هذا الشعور الذي كان يضطرب به صدرهُ ، ولكن احدى رسائله المكتوبة سنة ١٨٢١ تعين لنا بالضبط اليوم الذي ازيح فيه الحائل الفاصل بين القلبين . كان ذلك يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨١٩ وكان فكتور يومها في السابعة عشرة من عمره واديل في السادسة عشرة

كانت اديل أجرأ من فكتور ، وأشد رغبة في الاستطلاع ، فرغبت وهي فتاة ، ان تتبيّن معنى هذا الغرام الصامت فقالت : « لاريب عندي في انك تخفي أسراراً . أليس بينها سرٌّ يفوقها

جميعاً ؟ » فاعترف ڤكتور بأن عنده أسراراً وان احدها يفوقها جميعاً . فصاحت أديل : وهذا هو حالي : تعال . تعال الآن اخلعني على أهم أسرارك وأنا أطلعك على أهم أسراري. فقال ڤكتور: أهم أسراري اني أحبك . فرددت اديل وسري العظيم هو اني أحبك ، وكأن كلاهما كان صدى لكلامه

وكذلك تحطم الجليد بينهما — على ما يقول الفرنجة — ولكن حبهما كان معتدلاً ، تكاتبا وقد باح أحدها للآخر بمكنون قلبه، وقفا امام هول الحب وعظمته وقفة المتعبد في هيكل نغم

وقد قال ڤكتور في قصيدة يصف ذلك اليوم ، ان شفاهما الطاهرة لم تلفظ بعبارات الغرام وانهما ما كانا يملكان الا التفوه بكلمة واحدة

***

تبادلا بعد ذلك بعض الرسائل أحياناً إلا أنها كانت في الغالب « قصيرة فاترة » ولكن هذه الرسائل لم تحفظ . ثم جاء الصيف ، وذهبت أسرة فوشه لتصطاف في إسي في ضواحي باريس . فكان ذلك باعثاً على الكآبة تستولي على نفس ڤكتور . وقد حاول عبثاً ان يقنع نفسه بأن المرحلة الى إسي كالمرحلة الى « أوتل ده تولوز » . ولكن الزيارات اليومية كانت متعذرة

فلما عاد الخريف عادت أسرة فوشه الى باريس، وكان الميل اللطيف قد تحول في صدر ڤكتور الى شعلة لا تنطفىء على ما قال في قصيدة له في أحد دواوينه[1] . بل ان الحب كان قد أخذ علك على ڤكتور كل ناحية من نواحي شعوره ، وتغلغل في كل جانب من جوانب حياته

وبعد عودة آل فوشه من إسي في خريف سنة ١٨١٩ انتظم تبادل الرسائل بين ڤكتور واديل . وكان ڤكتور قد طرح التردد والجبن ، وأصبح عاشقاً جريئاً ، فصار يطلب الى اديل ان توافيه في مواعيد معينة واماكن معينة ، فكانت تلبي طلبه . وكانت حديقة « الاوتل ده تولوز » احد اماكن الاجتماع ، فكانت اديل اذا غابت والدتها ، تنسل الى الحديقة لمقابلة ڤكتور المنتظر في « ظلال اشجار الكستناء » . اوكانت اديل تذهب احياناً الى السوق بدلاً من والدتها وبعد ان تبتاع ماذهبت له ، تسرع الى مقابلة حبيبها في احد الشوارع الهادئة. ولما تحسنت صحة المسيو فوشه صار يسره استقبال اصحابه في المساء، وكثيراً ما كان بين الزوار صويحبات اديل واصحابها . فكان ڤكتور يجتمع باديل ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بحكم الطبع قصيراً ، والحديث مقتضباً فكان لا بد من أمام ذلك التبادل كتابة

***

لم تحفظ رسائل ڤكتور الاولى ولكنها في الراجح لا تختلف عن معظم الرسائل التي حفظت.

(1) Odes et Ballades

اما تبيّن في رسائله ، ان فكتور كان وهو في السابعة عشرة من العمر يفكر تفكير الرجال . فهو واثق بنفسه ، واثق باخلاصه ، واثق بحبه وشرف اغراضه . ثم انهُ لا يرتاب اقل ارتياب، في شجاعته وقيامه على عهد الوفاء . فاذا كان لا مفرَّ من الانتظار فانهُ ينتظر . واذا قامت في سبيلها العقبات ، فانهُ يتخطاها . انهُ لا يسلّم بان هناك شيئاً مستحيلاً . وهو يحسب اديل زوجتهُ ، لذلك تراهُ يجرؤ على توقيع معظم رسائله اليها بكلمة « زوجك » . ولكن اديل لا تزال طفلة . هي ذكية الفؤاد ، نبيلة الشعور ، ولكن قلبها قلب طفل . انها رقيقة ، حنونة، فتردُّ على حبه الناضج حبًّا طفلا

ولكن الى اين يفضي حب صغيرين كفكتور واديل في سنهما واحوالها ؟ لا ريب في ان الوالدين يفصلون بينهما عندما يطوف الريب باذهانهم . لذلك اتفق الحبيبان ان يمتنعا عن تبادل الحديث الا اذا كانا منفردين . وان يتظاهرا في حضور الناس ، بان احدهما لا يهمهُ الآخر ولا يعنى به

ولكن هذا التظاهر كان يؤلم اديل . كان فكتور لا يزال يطيع امه كأنهُ لا يزال في العاشرة من عمره ، وكانت هي تحسبهُ طفلا فلم تتصوَّر انهُ في هذه السن يمكن ان يقع في شرك الغرام . الا ان أم اديل كانت أقوى ملاحظة وأنفذ بصيرة من صاحبتها ، فظنت انها رأت غير مرة ، ما ينمُّ على تحابِّ اديل وفكتور ، ولكنها حسبت ذلك من نوازع الحداثة البريئة ومع ذلك لم تغفل في مراقبة بنتها ، وفي توجيه الاسئلة اليها ، وتوبيخها احياناً ، وكان كل هذا يتم اديل ، فتبوح بنمها الى فكتور ، واحياناً تلومه عليه او يتضجر طبعها النافي بالتأنيب احياناً اخرى . ولكنها كانت ، اذا رأتهُ كئيباً كاسف البال وبدا عليه انهُ يظنُّ انها لا تحبه ، تسرع الى طلب العفو والغفران ، لانهُ كان كما قال في شعره في منزلة ربٍّ لها

ثم اخذت شهرته الشعرية تذيع ، وبدأ اسمه يلمع في سماء الادب فدعاه شاتوبريان « الطفل العلوي » ، وجعلت الصالونات الادبية تتحدث ببعض قصائده ، ومنحتهُ اكادمية الالعاب الزهرية في تولوز جائزتين من جوائزها الاولى على قصيدتين قدمهما اليها

ولما كانت رسائل فكتور التي كتبت سنة ١٨١٩ لم تحفظ ، فأول شاهد على حبه ، منطو في قصيدة له عنوانها « الزفرة الاولى » نظمت في شهر دسمبر من تلك السنة . فلما قدم هذه القصيدة الى اديل ، طالباً اليها ان تقرأها على حدة : لأنها نظمت لها خاصة ، طفح كأس صباها بالغبطة . وكان في القصيدة كثير من انغام الحزن والقنوط . ولكنها قصيدة ما أجملها ، في نظر الفتاة . واذ تحدث الشاعر في قصيدته ، عن يوم مماته ، سأل اديل عما تجيز حبه ، ووفاءه فوعدته باثنتي عشرة قبلة !

ولكن هذه القصائد وهذه القبلات لم تلبث حتى اصبحت باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج

قلنا انهُ كان لاديل صويحبات ، وليس من الطبيعي ان تتلقى فتاة قصيدة بارعة كتبت لها خاصة ، من دون ان تريها لاحدى صويحباتها على الاقل، فاذا ارتها اياها ، فكيف يسعها أن لا تقول ان فتاة القصيدة انما هي نفسها — اديل فوشيه ، حبيبة الشاعر ؟ ! ولا ريب في ان احدى صويحباتها سألتها : ولكن هل تحبينهُ ؟ فتجيب — أيسعني إلاَّ أحبه — وهل يحبك — كيف أستطيع أن أخفيه . وعندها يرجح أنها باحت لتلك الصويحبة بالقبلات التي دفعتها ثمناً لتلك القصيدة وجزاء لذلك الوفاء ! فتصيح صاحبتها في شيء من الذعر

— ولكنه لا يسعهُ أن يحترمك ما زلت لا تحترمين نفسك

كانت أمها قد حذَّرتها من كل هذا فقالت لها : احذري يا بنتي ، اذا قال لك رجل انهُ يحبك ، وكنت على جانب من الضعف، فلا يمضي وقت طويل حتى يزول ما يكنهُ لك من الاحترام أمضَّها الشك . هل التسليم بالحبّ يفضي الى فقدان احترام الحبيب ؟ اذن حبيبها يحتقرها ! وكيف تستطيع ان تصبر على احتقاره اياها ؟ سألتهُ في ذلك ، والألم يفطر قلبها « أصحيح أنك تحتقرني ؟ هل يمكن ان تحتقرني ؟ » فأنكر ذلك ، واعترض عليه ، وغضب في انكاره واحتجاجه ، وجدّد عهود الحب والوفاء ، وأتى ببراهين حبه واخلاصه . ولكن الريب في ذهنها اصبح فكرة سائدة . وكثيراً ما نعود الى هذا الموضوع في رسائلها . نعم اننا لا نملك رسائلها ، ولكننا نملك جوابات فكتور . كيف يستطيع ان يقنعها ؟ فليس الاحترام والاجلال كل ما في نفسه ، بل هي العبادة ! انهُ يحبها جاثياً . ومجرد تطويقها بذراعيه ، والفوز منها بوعد بقبلة ، هو كل ما يطلبه منها وهو كل سعادته . وقد كانت اديل جديرة بهذا . فقد كانت وهي في السادسة عشرة صبية بارعة الجمال ، سمراء اللون ، سوداء الشعر ، مقنطرة الحواجب، دقيقة الانف فأقامها فكتور في هيكل افكاره على مذبح وجثا امامه عابداً متخشعاً . بل أن عبقريته الشعرية انحنت اجلالاً امام عبقري جمالها ، بدعة وخشوع . قد تكون زوجه في المستقبل مع انهُ لا يجرؤ على تصور هذا . ولكن اذا اصبحت زوج آخر ، فانهُ يموت ، لانه لا يتحمَّل ذلك . وفكرة الموت هذه ، كانت برهاناً لهُ على حبه لها ، فرسخت في ذهنه ، وكثيراً ما رددها ، في اشكال مختلفة في رسائل غرامه ، وكان لها وقع عظيم في نفس حبيبته

وضع فكتور كلَّ شيء عند اقدام اديل او تحت اقدامها . فلست تجده يذكر في رسائله شيئاً من كتاباته ، او ما اصابهُ من النجاح الادبي او شهرتهُ الآخذة في الذيوع ، واذا اشار الى ذلك فانما يذكره لكي يؤكد لها ، ان كل ذلك انما هو لاجلها ، ولها ، وانما هي صاحبة الوحي وينبوع الالهام . فالموضوع الوحيد الذي تدور عليه الرسائل هو هذا الحب — الحب دون غيره من الموضوعات ، ولذلك سوف تبقى رسائل غرام هوجو مثالاً فذاً نقياً للحب السامي